القصة

في الادب العربي

بقلم الدكتور محمد كامل حسين

زميلي الصديق الاستاذ مشكور الاسدي

لمت اليّ ان اكتب لمجلة البيان الغراء بحثاً عن طرائف القصص في ادب مصر الفاطمية وانت تعلم ان لمجلة البيان عندي منزلة رفيعة لما تطلعنا به من آيات ادبية رائعة يدبجها يراع اخواني ادباء العراق وغير العراق ، فكيف تطلب الي الجري في حلبتهم والسعي في مضمارهم ، وانا العاجز عن ذلك . .

ومع ذلك فهناك بعض آراء وافكار جالت في خاطري عندما عرضت علي الكتابة في هذا الموضوع القصصي تتصل بالقصة في الادب العربي بوجه عام لا ارى بأساً من تدوينها اليوم راجياً ان اوفق الى كتابة البحث الذي اقترحته ـ اذا كنت مصراً على هذا ـ في فرصة اخرى .

اني لاذكر انني منذ خمس عشرة سنة كتبت في احدى الصحف المصرية اطلب الى الباحثين ومؤرخي الادب العربي ان يسهموا في دراسة القصة العربية بعد ان رأيت القدماء قد اطمأنوا الى ان ادبنا لم يعرف القصة كما عرفت في آداب امم اخرى ، وجاء اكثر المحدثين يرددون دعوى القدماء فاغفلوا البحث عن القصة العربية ايماناً منهم بان الناطقين بالضاد لم يعرفوا القصة الا في عصرنا الحديث .

لست ادري ، يا صديقي ، كيف ذهب القدماء واكثر المحدثين هذا المذهب ، بينما نحن نردد قول الله تعالى في كتابه الكريم : (نحن نقص عليك احسن القصص) كما ان القرآن الكريم صرح بان ماجاء به عن الانبياء صلوات الله عليهم انما هو من القصص . حقيقة ليست قصص القرآن من سمر السمار أو لهو الكتاب ، انما هي في تاريخ السابقين ولكن ما خيلتنا اذا كان القرآن نفسه اطلق على هذا اللون من التاريخ صفة القصص ؟ وكذلك نقول عن جميع الآيات التي وردت عن الامم السالفة مثل عاد وثمود او قصة اهل الكهف التي ضرب الله بها الامثال ترهيباً او ترغيباً . فاذا نظرنا الى هذه الايات كما اراد القرآن ان ننظر اليها فسنرى ان الله تعالى اتخذ القصص وسيلة لتربية المؤمنين .. وها نحن الآن نرى علماء النفس والتربية في عصرنا الحديث ينادون بان اقوم وسيلة للتعليم والتهذيب هو عن طريق القصص .!

كان قصص القرآن اساسا لفن قصصي اخذ ينمو وينتشر بين المسلمين ، بل جعلت الدولة الاسلامية في بعض العهود وظيفة من وظائفها « القاص » بجانب وظيفة « القاضي » . . بل كثيراً ما قرأنا في التاريخ الاسلامي ان بعض القضاة

بلغت حداً يقشعر البدن من سماع بعضها فضلا عن مجموعها والناس حيارى سكارى بما اصيبوا به من فقر مدقع ، وفقدان توجيه ، وازمة ضيقة جعلتهم لا يفهموا من امر حياتهم إلا تهيئة الغذاء الضروري واللباس الساتر ، وحفنة من الناس تستغل جهودهم واتعابهم متناسية ان هؤلاء ان ماتوا فسيموتون بموتهم ، وان اصابهم السل فسيتفشى بينهم وبين اولادهم الذين لا هم لهم إلا الشر والخلاعة والدعارة والتطاول على الناس وانفاق ما ابتزوه بسرقاتهم لارواء نهمهم .

تفشت السرقات حتى وصلت الى الادباء فاخذوا يغتصبون نتاج الغير بدعوى انه لهم ، فما احوجنا الى لص (النداء) المصرية الذي اظهر من السرقات الخطيرة وفضح من الشخصيات الادبية التي مرت عليها عقود من الزمن وهي مرموقة بعين الاكبار والاعجاب من قراء اللغة العربية الكثيرين .

ما احوجنا الى ملاكم عنيد يواجه الناس بعقله ، ويكلمهم بمنطقه الرزين تاركا وراءه العاطفة والمجاملة ليفيق الناس ويثوبوا الى رشدهم ، فقد هلك الضعيف بسكوت الأديب الحر ، وتطاول الاثرياء ، لتساهل الحكم معهم ، واصبحنا واليأس قد خيم علينا كالغمام ، والمرض قد تسرب الى قلوبنا كنذير مفزع ، فالى اولياء الامر الذين تكفلوا برعاية البلاد والعباد ارفع كلمتي هذه ؟

على الجارم

كانوا يجمعون بين القضاء والقصص . وهذا القصص لونان : قصص يتحدث فيه عن الامم السالفة وعن الانبياء والمرسلين وقصص هو اقرب الى الوعظ الديني منه الى أي شيء آخر ففيه حديث عن الجنة والنار والحساب والثواب والعقاب الى غير ذلك وهذا القصص بلونيه قد لعب الخيال فيه وحلق ، حتى اصبح مصدر ثروة ادبية تستحق العناية والبحث ولاسيما ما جاء في القسم الثاني منه وما تطور اليه امره عند الصوفية .

وانت تعلم ان القدماء ذهبوا الى أن الادب العربي لم يعرف الاساطير الدينية (الميثولوجيا) كما عرفت عند اليونان ومصر الفرعونية ـ مثلا ـ ولكن الذي يمعن في دراسة العصر الجاهلي يروعه ان يجد ثروة قصصية حيكت حول آلهة العرب قبل الاسلام ويكفي ان اذكر هنا ما روى عن العزى وعن إساف ونائلة ، وماروى عن نسر وغيرها ؛ ولو اهتم المسلمون بتدوين كل ما روى عن الميثولوجيا العربية لوجدنا اساطير عديدة ممتعة ، ولكن المسلمين اغفلوا كل ذلك واهملوه عمداً ليتفرغوا الى معرفة دينهم الاسلامي الحنيف ، بينما دوّنت اساطير اليونان واساطير مصر الفرعونية . . الخ في عصر الوثنية ، فلم يجد الادباء والشعراء حرجا في رواية وتدوين هذه الاساطير فبقي اكثرها بينما ضاعت اساطير العرب في الجاهلية ، ولم يبق منها الا نتف يسيرة متفرقة في الكتب ، ولكنها تدل على اساطير كثيرة بددها الاسلام والمسلمون ، ومع ذلك لم تدرس هذه البقية الباقية .

وأسألك بعد ذلك ان تحدثني عما تقرؤه الآن في الكتب العربية عن قصص الجن والغيلان وما اليهم .. فهذه القصص تملأ المراجع العامة الادبية والتاريخية ، وكتب الرحالة أليست هذه القصص من النوع الذي يطلق عليه الغربيون اسم : ,, LEGEND ،، احياناً ، واحياناً اسم : ,, FAIRYTALES ،، فلو جمعت هذه القصص في كتاب الا يستحق ان يكون من الكتب القصصية العربية الشائقة ؟ وقال القدماء وتبعهم المحدثون ان الادب العربي لم يعرف الشعر القصصي ,, EPIC ،، الذي عرفته الآداب الغربية ، ولكن ازعم ان الأدب العربي مليء بالشعر القصصي ، نراه في مجموعات الشعر العربي في الابواب التي عرفها القدماء بشعر الحماسة ، حقيقة نرى فرقا بين الشعر القصصي الغربي والشعر الحماسي العربي ، ففي الشعر القصصي الاجنبي تختفي شخصية الشاعر وتفنى في القبلية او في حياة الابطال ولكن الشاعر العربي يتحدث عن نفسه ، لانه في اكثر الاحيان هو نفسه البطل ، فهو يشيد بمعاركه وانتصاراته فبينما الشاعر العربي يتحدث عن معارك قديمة لابطال قدماء كان الشاعر العربي يتحدث عن نفسه وبطولته ، فالشعر الذي انشد في ايام العرب لا يقل في روعته عن الشعر القصصي في الاداب الاجنبية .

وكذلك ازعم ان العرب عرفوا القصة القصيرة: ,, SHORT STORY ،، بل بين ايدينا مجموعة من هذا القصص ؛ كتبها اعظم كتاب العربية وهو [الجاحظ] وتلك المجموعة هي كتابه [البخلاء] ففي قصصه تحليل نفسي لابطاله ، وصور واقعية لطبقة من طبقات المجتمع في بغداد ، لم يسلك الجاحظ في عرضها لغاية دراسة اجتماعية او تاريخية ، انما اتخذ طريقة قصصية فنية باسلوبه التهكمي الفريد الذي عرف به ، وعندنا مجموعة اخرى ، وان كان المؤلف جعل البطل يشترك في كل قصة منها ، وهذه المجموعة هي « مقامات » الحريري ففيها كل خصائص القصة القصيرة ، ولولا التزام الحريري السجع الممقوت اكثره ، لكان لهذه المقامات شأن كبير في الفن القصصي في الادب العربي

ولعلك تذكر كيف قابل الغربيون الكوميديا الالهية لدانتي ، وكيف تناولوها بابحاث متعددة متشعبة ، بل لاتزال هذه القصة موضع ابحاث تليها ابحاث ، وبالرغم من ان في الادب العربي مثل رسالة الغفران ورسالة حي بن يقظان ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد وغيرها فان الباحثين لم يأبهوا بها ولم يوجهوا اليها عنايتهم ،

اما قصة المجنون وابن ذريح وكثير وقصص عمر بن ابي ربيعة والف ليلة وليلة والبطال . . فهي معروفة متداولة يرويها الناس ويأخذ عنها المحدثون مادة لقصصهم وتمثيلياتهم .

واخيراً وليس بآخر أسألك عن القصص الشعبي الذي

المثاني والمثالث

للعلامة الجليل السيد عباس شبر

اشيد بيوتاً بجزل الكلام ... وغيري يشيد بصخر وكلس
ولو وسعتني رجال البيوت ... لما وزع الدهر في الشعر نفسي

ركضت بميدان هذي الحياة ... فلم احظ قط بغير العياء
وولد في لقاء الخطوب ... شعور التبرّم والاستياء
وقد كنت ارضى ببعض المنى ... لو اني تسربلت ثوب الرياء

لعمرك ما استخدمت للعيش عمتي ... ولم اتخذها قط احبولة الصيد
ولكنني جاريت قومي مقيداً ... فها هي في رأسي تشير الى قيد

يهددني بالقتل خب واتي ... لاقدر منه لو جهلت على القتل
ولكن لي ديناً وتأبى مروتي ... ويأبى نجاري ان يذم الورى فعلي
وما عاجز من كف عن جاهل يداً ... اذا ما غي قابل المثل بالمثل

لعمته السوداء يدعى بسيد ... ولم أدر ما معنى السيادة باللفظ
لعمري لقد كانت تشير لسؤدد ... ولكنها عادت تشف عن الحظ

يا خليلا محضته كل ودي ... خدعتني ظواهر من صفاتك
خنت عهدي وكم حفظتك جهدي ... دونك الفرق بين ذاتي وذاتك
فلعمري لتخبرن صديقا ... لست تلقى نظيره في حياتك

ينشده العامة في المقاهي الشعبية في مصر والبلاد العربية فهي من نوع الملاحم او الشعر القصصي، فعندنا سيرة عنترة بن شداد وسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيبرس وسيرة ذات الهمة وغيرها، فهي كلها من قصص الملاحم وبها كل مميزات الشعر القصصي عند الغربيين ولكنها كتبت باللهجة التي يصطنعها الشعب.

هذه خواطر طائرة جالت في مخيلتي عند ما طلبت إلي ان اكتب في الموضوع القصصي المقترح..

وكلي املي ان يقف شبابنا المثقف [في الادب العربي على تلك الثروة القصصية المخزونة] وان يحسن الانتفاع بها.

القاهرة — محمد كامل حسين

رباعيات الحبوبي

للشاعر الكبير السيد محمود الحبوبي

جائعة

تالله حلفة صادق بيمينه ... اني جزعت لذات حسن جازعة
مرت بنا فسألتها يا خود من ... طبع الوجوم على الفتاة اليافعة
فغدت تعبر عن حقيقة حالها ... شفة متمتمة، وعين دامعة
فعلمت من هذي وهذا انها ... أبت الرذيلة فهي تحيا جائعة

عباد الدرهم

قل لمباهين باعمال من ... هم في حشا الارض عباديد
لم يغنكم تمجيدا اجدادكم ... ومالكم يا قوم تمجيد
ألم يكن يخجلكم انكم ... ازرت بكم هذي القلائد
وان خير الناس آثارهم ... وخيركم ما أكل الدود !!

تضريع

سمعت اخا سغب قائلا ... لذي نشب صد مستكبرا
على م تحاول مني الخضوع ... ولست الثريا، ولست الثرى
وتأبى مصافحتي، انني ... أرى من يديك يدي أطهرا
فما اختضبت بدم الابرياء ... ولا اغتصبت قط مال الورى

مصادفة محزنة

صادفت يوما في قبيلة معشر ... قوما على قسماتهم سيما الهدى
يشكون فوضى لم تجد يد مصلح ... تسدى اليها حين تصلحها يدا
فسألتهم: وزعيمكم ما باله، ... قالوا وانفسهم تذوب تنهدا
: لم نشك فقد المصلحين كما ترى ... لو لم يكن شيخ القبيلة مفسدا!

محمود الحبوبي